استقلال الأردن بين «خربشات» معهد واشنطن و«رؤية» طاهر المصري * رومان حداد

الراي - جاء الاحتفال باستقلال الأردن السابع والستين والمنطقة تتعرض لزلزال يغير جغرافيتها السياسية وديمغرافيتها للوصول إلى منطقة تعكس ميزان القوى العالمية وتتوافق مع مصالحها وتحقق التصور الأمريكي للدور الوظيفي للمنطقة في المستقبل، وصادف صدور تقرير عن (معهد واشنطن) يحمل توقيع روبرت ساتلوف المدير التنفيذي للمعهد وديفيد شينكر مدير برنامج السياسة العربية في المعهد، يحاولان من خلاله تحليل الوضع العام في الأردن وقراءة ما يتعرض له من إشكاليات ومدى قدرته على مواجهتها.

التقرير جاء كمحاولة تفقد (لماحيتها) في القراءة والتحليل، عبر استعارة نماذج محيطة بالأردن ومحاولة معرفة نجاعتها في حال تم تطبيقها في الأردن، متناسين خصوصية الأردن التي كان يجب أخذها بالحسبان عند إعداد دراسة بهذا الحجم وصادرة عن معهد وباحثين من المفترض أنهم يتمتعون بسمعة جيدة، ولكن آلية الإنتاج الحديثة التي تصنع نموذجاً واحداً وتصنع منه نسخاً متعددة قد أثرت على طريقة التفكير الغربي عموماً، ولم يعد العقل الغربي قادراً على ملاحظة الفرادة، وبالتالي صار ميالاً أكثر للتعميم، وخلق أنماط محددة مدعومة بافتراضات مسبقة.

وقد بدأ التقرير بخلاصة هي أن «الأردن نجا حتى الآن من العاصفة السياسية التي اجتاحت دولاً كثيرة في الشرق الأوسط منذ أواخر عام 2010»، دون أن يبحث التقرير بأسباب النجاة ليضمنها قراءته وتحليله، بل قفز إلى أنه من «الممكن أن تتحول العديد من التحديات التي تطفو الآن على السطح إلى تهديدات خطيرة تعصف باستقرار المملكة الهاشمية»، وحول هذه الممكنات الضعيفة والقليلة إلى احتماليات أقرب إلى الحقيقة وبحث في إمكانية تحققها.

فمن الطريف تصور قيام مظاهرات تشبه ما حدث في ميدان التحرير في مصر رغم أن نشطاء الحراكات بحسب التقرير نفسه (شريحة صغيرة من إجمالي عدد السكان)، أو أن يقوم (الإخوان المسلمين) بالاشتباك المسلح في مواجهة قوات الأمن والجيش، فقيادات الإسلاميين التاريخية وحكمائهم سيكونون ضد هذا التوجه، كما أن (الإخوان المسلمين) قد فقدوا جزءاً كبيراً من فاعليتهم في ما كانوا يعتقدون أنها مناطق نفوذهم، وذلك لأسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن.

إلا أن أكثر ما يزعج في التقرير هو إصرار الباحثين على تسمية (المملكة الأردنية الهاشمية) بـ(الضفة الشرقية)، وهو ما يؤشر إلى قراءة تحليلية موجهة القصد منها نفي صفة الدولة عن الأردن وإعادته إلى مرحلة إعادة تعريف الحالة السياسية لكيان (الضفة الشرقية) عبر استحضار حالة (الضفة الغربية) دون ذكرها وضرورة التوحد الفدرالي كحل ضروري للأزمة المفترضة.

هذه القراءة المسمومة والمقصودة لتوتير الداخل الأردني تواجهها قراءة هادئة قدمها رئيس مجلس الأمة في كلمته التي ألقاها بين يدي جلالة الملك عبد الله الثاني في احتفال الاستقلال، فما قدمه طاهر المصري من قراءة لمفهوم الاستقلال ودورنا في صيانته، بصورة خارجة عن مألوف البروتوكول الكلمات في مثل هذه

المناسبات، جاء بدافعه الوطني المدرك حساسية المرحلة عبر تعرضه في كلمته للتحديات التي تواجه الأردن، فتكلم عن ضرورة بناء تحالفات تحقق للأردن أهدافه بما لا يخالف الثوابت الوطنية، ولكنه أكد على ضرورة تقوية الداخل للحفاظ على المنجز الخارجي.

فكان الكلام عن تقوية حالة توافق وطني وصون سلامة النسيج الاجتماعي الموحد، لأن ذلك هو الإنجاز الذي يوفر حياة كريمة للشعوب، وهو ما يمكن تحقيقه، من خلال سيادة قيم العدل والمساواة والحرية، وصون حرمة الدستور والقانون، باعتبارها حاضنة البيئة النظيفة التي تفرز استقراراً نفسياً وأمنياً.

الفارق بين قراءة (معهد واشنطن) وطاهر المصري، أن المصري قادر على جس نبض القلب وفهم مكامن الوجع ومعرفة تضاريس الروح الأردنية، وفخاخ الهواجس التي كلما أمعنا بالاستهتار بها كلما أمعنت فينا خوفاً يمنعنا من التقدم، وحرفه يصدر عن قلب أردني (نبيل)، قادر على حب الأردن ومعرفة صعابه وخبير في مسالكه، ليس كتحليل (معهد واشنطن) المسموم الذي يمكن قراءته كمحاولة للضغط على الأردن من قبل بعض جماعات الضغط الأمريكية.

علينا في هذه المرحلة السماع والإنصات لحكمائنا دون أن تقلقنا قراءات خارجية لها أهدافها غير المعلنة، وعلينا الاعتراف بوجود عيوب علينا إصلاحها، ولكن وفق وصفة تعرف الأردن وخصوصيته ولا تخشى من (التهويش) من آخرين لا يرغبون بخير الأردن ولا يجدون بداً من الإساءة له .